امسك الخشب يا أبو مراد

(لاجئون في لبنان وقلوبهم في رفح)

امتياز دياب

قصة سعاد

جلس محمد معروف ابن علي معروف، ونهاد سرور، في حجرة يسمونها «صالون». كانت الحجرة صغيرة لدرجة أن نقطة الوضوح في الكاميرا لا تطيعني لألتقط صورة دون أن أحشر ظهري في الزاوية، والصق رأسي بجدار أكلته الرطوبة، ونشرت عليه بقعاً غامقة، عفنة، انبعثت منها رائحة الموت.

جلست على كنبة تجاوز طولها طول الغرفة ببضعة سنتيمترات، وحاولت أن أميز ألوانها

امتياز دياب، صحافية فلسطينية تقيم في جنيف

فاختلط علي الأمر: اعتبرتها بنية اللون، تعلوها رسوم، ربما كان لونها ذات يوم أبيض. تفصلني عن محمد طاولة صغيرة الحجم متآكلة القوائم. سمعت عنه من هدى ترك، التي تعمل في قسم الإعلام في الأونروا [وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين].

وكان ذلك عندما سألتها عن حالات اجتماعية خاصة تعنى بها الأونروا. وها هو محمد يجلس أمامي شابكا أصابعه، شاخصا بعينين قويتي النظرات.

رد على سؤالي ما إذا كان من سكان شتيلا، وما يشغله في هذه الدنيا، بهمس ثابت كخرير الماء المنبعث من نبع أبدي الجريان، يترقرق على حجارة ملساء معقوفة كحرف القاف قال:

«أنا من دير القادسية قضاء عكا، عمري ١٥ سنة، وبدي أدرس فلسفة، لأن الموضوع يساعدني على ما أنا فيه، وبكون في ايدي أداة عشان أقدر أقول اللي في قلبي، عشان أفهم ليش الناس ما احترموش كلام حكمائهم، وانقادوا لأوامر حكامهم؟ ليه؟».

«أنا بعرف إني لو حصلت على شهادات عالية مش راح أشتغل، لأنه ممنوع على الفلسطيني العمل، وخصوصا في الوظائف الرفيعة، وأنا بعرف انه راح أظل عالة على أهلي، وعلى الأونروا، وبعرف انه راح أبقى ساكن هون، في هذه الدار، لأنه ممنوع الفلسطيني يعمر دار بدواعي عدم تشجيع التوطين. بس(لكن) أنا راح أتعلم وأكمل، انتي جايه تعرفي عن أوضاع المخيمات؟ الوضع الحمد لله كلُّه تمام مفيش مشاكل».

دخلت نهاد والدة محمد، وأربعة أطفال آخرين، باسمة مرحبة، تلبس ثوبا أخضر موشى برسوم بيضاء، وعلى رأسها منديل أبيض برسوم خضراء. جلست على طرف الكنبة، وهمست بشيء ما لصغير لم يتجاوز طوله ذراع الكنبة إلاّ بسنتيمترات قليلة.وقد قطع بعدها المتر الذي يفصله عن باب الدار الخارجي، ركضا، وكأنه سيقطع باحة متسعة الأرجاء، ثم ابتلعه ضوء من شمسٍ بخلت بدفئها على كنبة رطبة، تهدد من يجلس عليها بنزلة صدرية.

انتزعت نفسي من أحلامي بالشمس، وقلت إن الأونروا ستعقد اجتماعها السنوي للدول المانحة، وستحاول إقناع الدول بحاجة الشعب الفلسطيني للمساعدة.

وسأل محمد:

«وأنتِ شو شايفة؟

شفتي بيتنا؟ شفتي مدارسنا؟ شفتي شوارعنا؟

شو رأيك؟ إحنا بحاجة أم لا؟»

جاء صوت المذياع من الغرفة الداخلية: إن «خطة الفصل» التي عرضها شارون في استفتاء داخل الليكود تجهض أي أمل بقيام دولة فلسطينية. يرد محمد على المذيع: «الليكود لا يقرر مصير الشعب الفلسطيني».

وسألت محمد: ماذا يحدث لو لم تقم فلسطين.

فتح محمد عينيه متسائلاً:

«وشو بصير لو أزلنا أمريكا؟ وشو بصير لو أزلنا الصين؟

ها؟ شو بصير؟

أنا بسأل حالي دايماً، ليش الإنسان، أو شو بكون الإنسان اللي بلاقي سعادته في إبادة أخوه الإنسان؟

كثير مرات بسأل هذا السؤال لأولاد بيتقاتلوا في الشارع، وبيقول الواحد منهم للثاني: بدي أموتك.

بسأل اللي بهدد: وبتكون مبسوط لو مات؟

بتنتهي مشاكلك في الدنيا بدون وجوده؟

عاد ابن نهاد الصغير، حاملا زجاجة مشروب غازي وضعها في حضن أمه، التي نهضت في الحال، وبلمح البصر عادت وفي يدها صينية عليها أكواب ملأتها بالسائل الأصفر، الذي ما زال يطلق الغاز بأصوات كصوت شرار النار، في صمت ليلة باردة، في شتاء مظلم.

قطعت نهاد الصمت وقالت:

«محمد مثّل مرة في مسرحية، كان يمثِّل دور ختيار يضربه الجيش الإسرائيلي». محمد قاطعها، وقال: «وإنتي خفتي، وكنتي تصيحي عليهم، وتقوليلهم هذا إبني، فضحتينا«

ابتسمت نهاد في حياء وترد:

«آه، والله خفت، شعرت كأنه صحيح، تذكرت أيام مذبحة صبرا، بعدني بخاف، اللي شفنا مش قليل يمّه». قاطعتها فسألت ما إذا كانت في صبرا أثناء الحصار؟ ردت عليّ، ولمحت ظلاما سقط على عينيها السوداوين:

«آه، كنت، هم رشُّونا، رشُّونا كلنا». همست: كيف رشُّوكم؟

«رشُّونا هيك» كان إصبعها في الهواء متجها نحوي، وقد أراحت مرفقها على يدها الثانية. وهل أصيب أحد بسوء؟ وضعت كفها على رقبتها، خففت من عقدة منديلها على عنقها، ثم شبكت يديها على صدرها، وتمتمت مع صوت المذياع الذي كنّا نسمعه: بسبب انعدام إمكانية دفن الشهداء في رفح، وضعت الجثامين في ثلاجات المنازل، وعملية قوس قزح ما زالت مستمرة.

«أبوي بالأول وقع، وبعدين رشوني أنا.. أنا وأمي انجرحنا.. تمددنا على الأرض وعملنا حالنا ميتات، ثلاثة من أخوتي راحوا، والصغيرة شادية كان عمرها سنة ونص، و... لأ، إسماعيل راح بعدين، هذاك نفد، بس راح بعدها بثلاث سنين بحصار.. بعدين.. بحصار المخيمات».

توقفت نهاد عن التأتأة، سكتت شاخصة بعينيها إلى هسيس خفيف جاء من الكؤوس التي لم يجرؤ أحد على لمسها، وصمتنا جميعاً نراقب فقاعات الغاز التي بدأت بالموت في مساحة الفراغ المتبقي بين سطح السائل وحافة الكأس. طال الصمت، فاستجمعت شجاعتي، وسألتها ببطء، وبعدين؟

قالت: «بعدين ولا شي، قمت أنا وأمي، ولّما رجع صوتهم، رجعنا نمنا. لما راح الصوت قمنا، لاقينا سعاد أختي مصابة كثير، معرفناش نحملها، حطيت لها جلن مي وسدينا الباب، واللاّ جثث..جثث ودم، وناس تركض، زي الأشباح كانت الدنيا الصبح بكير، ورحنا ندور على أخوي محمد في مستشفى غزة، وضاع عنّا إسماعيل وماهر». وبعدين؟

«وبعدين سمعنا كانوا راجعين على البيت، ولاقوا سعاد وحد منهم أخدها».

أخدها لوين؟

نظرت نهاد في وجهي وقالت وكأنها تتحدث بلغة متعارف عليها في ما بيننا: «ما أخذوها على محل، أخذوها في الدار». سعاد مشلولة منذ ذلك اليوم.

اللي بدري بدري، واللي ما بدري، بقول كف عدس.

ضرب الحاج أبو هشام كفا بكف وقال:

«وشو اللي صار يا عالم؟ حتى وصل حالنا إلى أسفل الدرك، شو اللي صار يا عالم يا هو... شو اللي صار يا ناس؟».

رفع الحاج يده إلى ذقنٍ مشذبة، أمسك بها، وقال:

«هذه الذقن البيضاء شاهدة على أيام سوداء، وأيام أسود من سودة، إذا بتهدا الحال في لبنان بتولع في غزة، وإذا بتهدا الأحوال في غزة، بتولع في رفح، من رفح إلى الفالوجة، إلى افغانستان، كله عدو واحد بستعمل ذات العميل، وإحنا قاعدين! هيك اختفت الشعوب العربية؟ شو اللي صار ما بعرف. بدِك تفهمي يا عمي على السياسة العالمية؟ لازم تفهمي السياسة والقضية الفلسطينية، واللي ما بفهم هذه القضية ملوش علاقة في السياسة. وأقلك أحسن من هيك! إذا بتفهمي ليش مخيم البداوي هيك، كمان بتفهمي شو اللي صاير في العالم».

أهلاً في شوارع البندقية

خرجت وأبو مراد لوباني، إلى أزقة مخيم البداوي الغارقة في مياه المجاري، نصل إلى زقاق ضيق يقول أبو مراد: هذا زقاق. يقهقه أبو مراد لكن حنجرته لا تساعده على مواصلة الارتفاع، فيضطر إلى اختصار القهقهة بما يتناسب ونزلته الصدرية، التي أثقلت على رئتيه المعبأتين بدخان علبتي سجائر.

وقفنا على باب الزقاق بانتظار عبور امرأة لامس كتفاها جدران بيوت التنك، باعدت بين قدميها، وتركتهما تتحسسان حافتي القناة الجارية بينهما، سمعت صوت شاب من على السطح، لاحظ قلقي من عبور الزقاق، فرحب بي ساخرا: «ولكم تو فنيس لاند».

في الأثناء وصلت السيدة إلى حيث نقف، وقالت بعد التحية، وكأنها تواصل حديثا بدأ قبل فترة: ها يا أبو مراد، قالوا لي انك جايب ناس تزور المخيم، والله لفيت عليكم، بدك تجيبهم على بيتنا، خليهم يشوفوا بلكي على الله أجا دورنا، وصلحولنا السقف أو أعطونا بالمرّة الدور للعمار؟

ودون انتظار إجابة أمسكتني من رسغي، وشدتني إلى الوراء، ثم على اليمين باب أو بابان، وفتحت باباً وجدت نفسي في غرفة نوم، أو غرفة تمدد فيها رجل، ما أن سمع الصوت حتى جلس في فراش ممزق، ولا أدري إذا كان يدخن وهو ونائم أم أنه أشعلها بلمح البصر؟

ولكن برغم الظلام المطبق لم ألاحظ اشتعال عود ثقاب! سعل الرجل بشدة، فحولت وجهي إلى الجهة الثانية تفاديا للعاب يطير نحوي لا محالة، ورأيت مرحاضاً خلف ستارة، ففهمت أن حالة الاختناق التي حلت بي تكمن هنا وليس هناك من الفراش. وبلحظة فقدت كل مشاعر اللطف

والأدب، وجميع دروس التواضع التي بثتها والدتي فيّ على شكل خنوع، وهرولت خارجة ضاربة بجميع ضروب الآداب عرض الحائط.

لحق بي أبو مراد قائلا:

«مثل هذا البيت يوجد ٩٥ بيت تنك في البداوي وحده».

تحاول الأونروا البحث عن تمويل منذ عشرين سنة. لكن المال غير متوفر، والأرض غير متوفرة. اللاجئون في لبنان هم أشد اللاجئين حرماناً، لأنهم لا يستفيدون من الخدمات الحكومية إلا بشكل محدود، ويتعين عليهم الاعتماد بشكل شبه كامل على وكالة الغوث «الأونروا» للحصول على التعليم الأساسي، والخدمات الصحية، والاجتماعية.

كذلك، تبقى مسألة دخول مواد البناء مرهونة بالحصول على موافقة السلطات العسكرية، وهي موافقة لا تمنح دائماً. هذا بالإضافة إلى البطالة، وتحريم حقوق الميراث على الفلسطينيين. هناك بعض اللاجئين من الذين أنعم عليهم بالجنسية عام ١٩٩٤ لكن البعض يحاول إسقاط الجنسية اللبنانية عنه.

وضع اللاجئين في لبنان أسوأ من وضع اللاجئين في سوريا، ففي سوريا يستطيع اللاجئ الاستفادة، وبصورة كاملة، من الخدمات الحكومية السورية، مثل التعليم والصحة والإسكان، والمرافق والأمن.

توقف أبو مراد أمام مبنى ناصع البياض بدا غريباً في بياضه وارتفاع طبقاته، قال أبو مراد:

«هذا حي الشانزيليزيه الخاص بالمخيم، هؤلاء السكان كانوا يسكنون بيوت زنك مثل البيت اللي شفتيه قبل شوي».

تطل سيدة برأسها من النافذة وتقول: «امسك الخشب يا أبو مراد، امسك الخشب، مع إنُّه كُلُّه بفضلكم، بس يعني بتعرف الحسد ما بعرف صاحب».

||

من رفح إلى النهر البارد

هبّ مدير مخيم النهر البارد لاستقبالي بحرارة ومودّة قائلاً:

«حظك مش ولا بد، المخيم مقلوب فوقاني تحتاني عشان مشروع الصرف، بس أهل المخيم

مبسوطين، بلكي يرتاحوا الشتوية الجاي، بس يعني بتشوفي المخيم على طبيعته، مش بالضبط على طبيعته لأنه الوضع في الشتاء غير في الصيف».

كان علينا السير على أطراف حفر الصرف، ولكي لا نسقط فيها تشبثنا بحواف النوافذ المطلة على القناة. وكان بالإمكان النظر إلى داخل البيوت، ومعرفة نوع الطعام الذي يطهى سواء من خلال الرائحة، أو من خلال النظر إلى سلة، أو بالأحرى، تنكة المهملات، هذا إذا كانت النافذة تطل على المطبخ. أما إذا كانت مطلة على غرفة المعيشة فيمكن متابعة الأخبار في رفح، أو الفالوجة، أو النجف.

رغم الاعتذار عن تطفلنا بإدخال رؤوسنا إلى داخل البيت إلاّ أنهم – وعلى ما يبدو– كانوا قد اعتادوا هذا النوع من التطفل، فتراهم أحياناً يأتون إلى حافة النافذة، ويتبادلون معنا أطراف الحديث. أو يدلّونا على أفضل الأمكنة لتفادي السقوط.

أطلت سيدة لتساعدنا، ولكنها رأت أبو عماد، فسألته عن دورهم في البناء. وانتهزت الفرصة عندما حاول أبو عماد الاحتفاظ بتوازنه لتقول شيئا ما عن ألواح الزنك البالية، لكن صوت المذيع في التلفاز غطى على صوتها قائلا: إن سجن أبو غريب سيدمر، وإن معارك طاحنة تدور في مدن جنوب العراق.

تحاول السيدة رفع صوتها، لكنه يختلط مع الخبر الذي أعلن عن سقوط جنود إسرائيليين، وسقوط ٨٥ جريحاً فلسطينياً. وبدلا من خفض صوت التلفاز، زعقت على أبو عماد:

«ما أنت شايف هذه ألواح الزنك بطقطق طول الليل، وهذا بالشتا والله ما بنشفلنا فراش، وهذا الولد الصغير طول الوقت بعن (يئن) من الربو، وأنا عندي القلب، والضغط، والسكري، دخيلك يا أبو عماد تقلهم للأونروا عن أحوالنا».

علا صوت شاب من الداخل: «بقولوا انه الدنيا قايمة في رفح، ومدير الأونروا عاد من بيروت على عجل، وبستغربش انه الاسرائيلية هدموا البيوت على أصحابها».

تلاحقنا السيدة برأسها وتقول لأبو عماد:

«بطقطق الزنك، والله بطقطق، والأولاد ما بعرفوا يناموا».

نظرت إلى أبو عماد الذي استمر في سيره معتقداً أنني أسير وراءه. كان ينقل قدمين ثابتتين من مطب إلى آخر دون تردد، ولم يمر بشخص جالس في دكان، أو متكئ على حافة نافذة، دون

طرح السلام، وأحيانا يثني على السلام بكيف الحال على كل شخص بالاسم. وإذا كان العابر طفلاً يسأله توصيل السلام إلى الوالد أو الوالدة، ولا يتردد بأن يربت على كتف صغير مستعملا مهارات المقاتلين اليابانيين للحفاظ على توازنه.

أخيراً انتبه إلى أنه يسير وحده، فوقف دون انزعاج منتظرا للحظات، ثم غيّر رأيه ودق على أحد الأبواب منادياً على أبو مصطفى، ثم أشار لي بيده لألحق به إلى الداخل، وسرعان ما غاب، فأسرعت وراءه لاهثة لكي لا أضيّع الباب الذي لا يختلف عن بقية الأبواب.

ستة أبواب، ووصلت إلى باب يؤدي إلى درج يوصلنا إلى طابق تحت الأرض. وصلت إلى باب مفتوح على صالة عديمة الضوء، لحقت بالأصوات المنبعثة من غرفة بدا فيها الظلام أكثر كثافة، فتلمست الأرض بحذر حتى وصلت إلى حيث يقف أبو عماد، الذي كان يحاول إيقاظ رجل ناداه بأبي مصطفى.

وفجأة غرقت الغرفة بضوء ساطع أشعلته عجوز صغيرة الحجم رقيقة العظام سعيدة الملامح. نهض الرجل النائم، تعرف على أبي عماد، فاحتضنه بحرارة نشرت في أرجاء الغرفة دفئاً طرد سكون المكان. انزلق أبو مصطفى من على الفراش، فبانت ساقه مربوطة بالجبس، شرح بسرعة أنه سقط سهواً عندما أراد التشبث بحافة في الشارع اعتاد على وجودها، لكنهم أزالوها دون علمه، فسقط متدحرجاً على الدرج.

بعدها، تحول من قصة ساقه إلى هذه الزيارة المفاجئة، معبراً عن ابتهاجه بمد يديه ممسكاً بيدي وكأنه يعرفني أنا الأخرى، وحاول الوقوف، فسارعت العجوز السعيدة وناولته عصا للاتكاء عليها، وقالت بهمس: زارتنا البركة، ثم تركتنا بصحبة أبي مصطفى الذي قادنا إلى غرفة وثيرة الأثاث، اعتلت جدرانها صور كبيرة احتلت حائطين. أما الجدار الثالث فاحتلته مكتبة رصت فوقها كتب ضخمة، ورغم قِدَمِها كانت خالية من الغبار. عندما رآني أبو مصطفى أنظر إلى الصور قال: «هذا الله يرحمه استشهد، وهذا في ليبيا الله يرضى عليه، وهذا محمد في الدانمرك الله يحفظه، وهذه الله يصبرنا على فراقها، وهذا مصطفى هون في المخيم الله يديمه لنا ولأولاده»، ثم تحول عن الموضوع وقال:

«أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً، ها.. يا با جاي من جنيف؟ بقولوا في مؤتمر في جنيف للدول المانحة والأونروا بتطالب بأربع ميت(مائة) ألف دولار، بعد اللي صار في رفح، وغزة، بدهم قدهم

على مرتين، صحيح واللاّ أنا غلطان؟ والله يابا الأونروا بتساعد من هون وشارون بهدم من هون. شفتي أحوال أهل المخيم يابا؟ كانوا متأملين بزيارة -هانسن- كل الخير، مع إنُّه دائمركي، لكن إنسان بحبنا قولي هم الدائمركيين مكنوش عاطلين معانا هم والسويد والنرويجية وسويسرا، هذا يابا لأنه ولا مرّة استعمروا بلاد غيرهم، ولا سرقوا خيرات بلاد الناس».

«شوفي يابا خذي وقيسي بريطانيا لأنها استعمرت العالم، بتلاقيها أوسخ القائمة، وفرنسا بتيجي وراها، وايطاليا وهولندا على طول من بعدهم، وأما أميركا فهذيك قصة لحالها، لكن أهل كربلاء والنجف والفالوجة مْطَلْعين عينيهُم، والخير لقدام يابا، شعوبنا بدها الحرية، يابا، وبدها الديموقراطية، لكن هذول حكامنا أغبياء، أي هو يعني بوش وبلير مقطعين الديموقراطية من ذيلها؟، طيب ما يعملوا حكامنا مثلهم؟ شو ناقصهم؟ لا ناقصهم مال ولا أحمال، لكن إحنا قتلنا الجهل. الأمية مش عند شعوبنا وبس، الأمية عند حكّامنا أولاً، لأنه الأمية مش بفك الحرف وبس».

«شوفي تقلك، وإسمحيلي كثر كلامي يعني» أنا فلاح ابن فلاح، وشعبنا كله فلاح مسالم، لا كان عنده سلاح، ولا كان بدّو يقاتل، كان عندهم شوية بواريد (بنادق) صيد مش أكثر. لكن العدواني عدواني، بعثولنا اليهود من عندهم لأنهم ما بدهم إياّهم وبعد ما ذبحوا منهم لشبعوا، هذول أجوا يقاتلوا قبل ما نحكي معهم، قبل ما نعرف شو بدهم من عندنا. ولليوم بقاتلوا وبِقَتْلوا وما بوقّفْهُم إللاّ اللّي ربّاهم!»«خذي على سبيل المثال الولد الشقي، بظل يتشاقى ويشاكس ويصَعِد وصَعَّد تنُّو(حتى) يلاقي حدا يْوَقْفوا، أصلاً هو تِعِب من المشاكسة لكن مش قادر يوقف. شوفي شارون من مذبحة صبرا وما وقف ولا حدا قالُّو وقف فبالنتيجة ما وقَّفْ».

توقف أبو مصطفى عن سيل الكلام، ونظر إلى صورة صغيرة الحجم بالأبيض والأسود لشاب وسيم، وقال مبتسماً:

«هذا محسوبك أنا لما كنت شباب، لكن راح العمر لما راح ابني في عملية في أفريقيا، ومن يومها والشيب دب بالراس وبهذه اللحية، ثم أغمض أبو مصطفى عينيه وهمس: معلش كلُّه فداك يا وطن. فلسطين حلوة يابا، صفورية بلدنا جنب الناصرة، كان في مركز قيادة في صفورية، والله الأرض سليبة وما بترجع من حالها».

نور

نور حسن حريري أصعب حالة اجتماعية عندي في مخيم الرشيدية. قالت هنادي العاملة الاجتماعية، وهي تنظر في الملفات أمامها بعينين خضراوين زينتا وجهاً قمحياً فاتحاً خالياً من أي زينة، ثم تابعت- وهي ترفع خصلة من شعرها انزلقت من وراء أذن صغيرة الحجم:

«والد نور في السجن، ووالدتها تعمل في التنظيف بشكل متقطع، لأنها تعمل فقط داخل المخيم لان الخروج من المخيم صعب ومكلف، هذا إن وجدَت الفرصة. نور بنت صعبة ومشاكسة، وبذيئة اللسان، ومزعجة في البيت، والمدرسة. نور في الصف الأول تذهب إلى مدرسة الأونروا، وتخصص الأونروا لها مبلغا صغيرا لكن غير ثابت، لأنه متعلق بالميزانيات المتوفرة لهذا المجال. لنور شقيق أصغر منها بعام يعني عمره خمس سنوات أو أقل».

سألت هنادي عن أسباب صعوبة التعامل مع نور على صغر سنها؟ ومع انتهائي من السؤال سقط التحفظ الذي وضعته هنادي وقالت دفعة واحدة:

«مش عارفين نتعامل معها، مجنِّني أمها، وبتضرب أخوها الصغير لأنه محبوب أكثر منها، لأنه هادي ووديع، مجنِّني المعلمة في المدرسة. وكمان بتروح على مؤسسة أطفال الصمود، حاولوا إيجاد كفيل ليكفلها، بتعرفي عندهم في الجمعية عدد كبير من الأطفال أحوالهم المادية جداً صعبة بسبب فقدان الأب، أو الأم، وأحياناً الأب والأم».

«بالتالي بعيشو مع أحد الأقارب الجد أو الجدّة، والكفيل فاعل خير يتبرع لهذا الطفل بمبلغ شهري بقيمة ٣٥ دولار، نور ما زالت في الانتظار هي وأخوها ما فش حظ، لما بتسكر الدنيا بتسكر من جميع الجهات».

في مدرسة القادسية سألت عن نور، فوجدتها طفلة آية في الجمال، نحاسية الألوان، عسلية العينين، عقصت شعرها المجعد ذيل فرس، فبدت رقبتها النحيلة كأنها تشي بجمالٍ واعد. جلست نور أمام مكتب مديرة المدرسة مندهشة من هذا الاهتمام المبالغ فيه، وغير المتوّقع، واحتارت من هذا الكم من الأسئلة الموجهة إليها، بدلا من الأوامر، والنصائح التي اعتادت عليها.

وقد شعر الحاضرون وكأن من واجبهم المساهمة بأسئلة كانت في الأغلب بلا معنى، بدءا من مدرسات ينتظرن حصصهن، إلى المديرة، إلى عدنان الذي رافقني في مشواري، وحتى خليل السائق.

وما زاد الطين بلة، عندما حاولت التدخل ليكفوا عن توجيه الأسئلة، وسألتها إذا كانت ترغب في الخروج من المكتب لنتحدث في الخارج، أنها أرخت عينين لوزيتين وجمدت في مكانها بصمت.

كأنني رأيت ستائر من الفولاذ قد أسدلت، عندئذ سكتُ، وفهمت، أن نور أقفلت الأبواب. وعندما رأت المديرة هذا الوضع بادرت إلى إمطار نور بالمديح، فهي ذكية عندما تدرس في البيت، ويمكن أن تكون من الأوائل إذا أرادت.

وتابعت: «نور بحاجة إلى تشجيع، لكن أمها مشغولة، والعاملة الاجتماعية لديها عدد من الحالات يفوق طاقة الإنسان، والمشاكل تزداد مع ازدياد البطالة، ونور نتيجة لوضع عام يجتاح المخيم».

«ونور بالذات بحاجة لنشاط جسدي، رياضة سباحة، وفي المخيم هذه النشاطات شبه معدومة، لا توجد لدى الأونروا إمكانيات خارج إطار النشاط التعليمي، تبقى منظمة أطفال الصمود، التي تقدم مساعدات، ولكن بشكل محدود وعلى نطاق ضيق. فالمشكلة الأساسية بما فيها مشكلة الأونروا، هي المكان، والمدارس مشغولة، في الصباح المدرسة للصغار وبعد الظهر للكبار، هذه الطريقة في التعليم غير موجودة في العالم إلا في مدارس الأونروا، والمنهج الدراسي يخلو من الرياضة أو الرسم أو الموسيقى.

البحث عن الرياح في برج الشمالي:

سرت مع عدنان إلى برج الشمالي، سرنا في الأزقة، ومررنا بتلة تراب، انتصب من ورائها جدار إسمنتي، عبر من فتحة جانبية فيه طلاب مدرسة برج الشمالي، وللعبور كان عليهم أن ينتظموا بطابور طويل. سألت عدنان لماذا لا يوسعون الفتحة في الجدار، ويزيلون تلة التراب التي تعيق السير، إذ يتوجب على الأطفال أن يتزلجوا عليها مستعملين أقفيتهم لكي يصلوا سالمين؟ وإزالة كومة من التراب لا تطكلف الكثير؟

نظر عدنان إلى التلّة وقال:

«ممنوع إزالتها لأن الحكومة حطت هذا المتراس لمنع إدخال مواد البناء».

ثم دعاني لزيارة دكان للحدادة، وصلنا إلى المكان الذي أسماه دكان الحدادة، حيث تجمع عدد

من الشبان يتبادلون أطراف الحديث، فقال لهم عدنان:

«إحكو لها عن الساتر يا شباب».

تبرع شاب يلبس قبعة بيسبول، وقميصا مربع الرسوم، يتكئ على لوح حديد علاه الصدأ قائلا:

«الساتر يعني الطرق اللي بتوصل للمخيم، دون العبور بالحاجز العسكري اللي في مدخل المخيم، المكان اللي انتو دخلتو منّو، عشان نتفادى مصادرة حاجاتنا، لأنه إذا بدنا نمرق يعني دعامة خشب، أو لوح زنك، أو أي شيء بخدم في العمار نمر عن الساتر، هم العسكر اللي حطوا الساتر، المهم بنحط أغراضنا عند الساتر، وبنلف من عند العسكر وبنعبر فاضيين، بعدين بنرجع بنحط السيارة على هذه الناحية من جوّه المخيم، وبنحمّل اللي جبناه، بنوديه على الدار، أو وين لازم..

هذا هو الساتر».

وسألته عن سبب المنع؟ فوقف منتصباً، وقال بصوت خالٍ من الرخاوة التي رافقت صوته حتى تلك اللحظة:

«لأنه ممنوع البناء، وإذا مسكونا ومعانا فرشاي، بتعرفي الفرشاي؟ فرشاية دهان ... هذاك اليوم واحد كان جاي ومعاه فرشايتين دهان، كان حططهم في سطل تنر عشان ما ينشفوا، قال له الجندي: شو هاظ، جاوبو: ما أنت شايف شو هاظ، فراشي للشغل، قال له لجندي: ممنوع، رد عليه: والله يا عمي هذول للشغل، قال له: ممنوع. عندها تدخل شوفير (سائق) التاكسي، وقال لهم: يا عمي بدنا نروّح على دورنا، صار الزلمة جايبهم، قال له الجندي: انتو اعبرو، لكن الفراشي ممنوع، قام صاحب الفراشي مسكهم وزتهم (رمى بهم) على الطريق تنهم عبروا».

ثم بدأ جميع الشباب بالمشاركة في الحديث، وسرد القصص عن الساتر، وقال صاحب المحددة:

«يا أختي إذا مسكونا مع لوح حديد بوقفونا، يوم.. يومين، وبدفعونا مخالفة، وبتوصل المخالفة عشرين، وثلاثين ألف ليرة (خمسة عشرة إلى عشرين دولار). يعني ربح الشهر بيروح، علشان هيك بنهربهم عن الساتر. إذا مات حدا من ها المخيم، بدنا ندفنه، ونبني له قبر، عشان نفوت ثلاثين حجر لبناء قبر بدنا تصريح، وبدون تصريح لا يمكن بناء القبر، هذا قانون من سنة ١٩٩٦، قال على أساس ما بدهمش الفلسطينيين يتوطنوا».

تدخل شاب آخر في الحديث قائلا:

«تصديق لكلام أخونا حسن، ليش العالم وقف مع مانديلا وشعبه؟ ومش على مستوى شعب وبس، وكمان على مستوى حكومات وقف العالم مع شعب جنوب أفريقيا، شو عمل مانديلا؟ اللي عملو منديلا معملوش بعض السياسيين عندنا. طيب هذا ابني اسأليه: أنت من وين؟ بقلك أنا من البص في فلسطين، وابنه راح يقول نفس الشي، بدي أقول إذا طالت قضيتنا معليش، ولكن مش معناه نختصرها، واللي تعب يروح على كندا».

تدخل الشباب بعد هذا الحديث للمشاركة، وتجمعت حولنا جمهرة منهم، وكان على الواحد منهم أن يرفع من صوته ليتمكن من إنهاء جملته، قال أحدهم بصوت مرتفع:

«خلص، يا عمي بدنا نرتاح، بدنا نعيش يوم من دون خوف، إحنا تعبنا، كلنا تعبنا، والعالم تعب معنا، ومنا، ومن قضيتنا».

وقال آخر:

«احنا تعبنا صحيح، لكن العالم ما تعب كفاية، لو تعب العالم كانو حلوها». وآخر:

«بدهم يحلُّوها بحلنا»

وآخر:

«اللي تعب يروح على كندا»

وآخر:

«أنت شو فاكر كندا منفى؟ والله كندا مش حل غلط، على الأقل نعلم أولادنا وندخلهم مدارس وجامعات، ونكمل من هناك، هم الفلسطينيه ليش ما عملوا مثل اليهود، اليهود فاتو على جميع الحكومات والمناصب، ومن هناك يحاربوا، لو عرب أميركا وصلوا في أميركا كان حالنا غير هذا الحال، وقضيتنا مش موضوع جدل».

يرد عليه آخر:

«معاك حق، لكن المشكلة اليوم حتى اللي واصلين من قلتهم، يحاربهم الصوت الصهيوني، شوفو شو عملوا مع إدوارد سعيد، حاربوه واتهموه بالعنصرية، ولمّا مات نعوه. نعوه بحذر، حتى كوفي عنان قال في النعي،لم أوافقه الرأي دائماً. طيب هل هذا وقته؟ اللي بنعي بنعي من غير ما يقول هيك عن واحد مات».

سأل آخر: «صحيح هيك قال كوفي عنان؟

«قال هيك ونص، مع انه كنّا نفكر عن كوفي عنان انه شخص عادل».

وآخر: «عادل وين يا عمي، لو بدو يكون عادل كان طالب بإدانة المضروب والضارب!!

وآخر: «بس إن جيتو للحق عنان وقف منيح للأمريكان في العراق، ضمن الممكن».

يضحكون من عبارة «ضمن الممكن». شاب صغير يطلع بصوت ويغني ساخراً:

«يمكن آه، يمكن لأ، ويمكن ما يمكنشي، وادّلع يا ولد». وبدأ الهرج والضحك وضربات خفيفة على الرقبة.لكن الشاب واصل الغناء، وأنشد بغنج، أو دلع المغنيات الجديدات، وباللهجة المصرية:

«مش ممكن بأقل الممكن، ولا أقصى الممكن، ما أقدرش على الممكن، لأن الممكن بيتعبني، بيتعبني، آه منك آه يا متعبني، خدني وحياتك على المش ممكن أصله أنا غاوي عذاب».

زاد الهرج وتصاعدت الضحكات خالية من الهم، وشرعت جوقة من الشبان في إنشاد «أنا غاوي عذاب، غاوي عذاب». وصاح أحدهم: «الله عليك، يا عليان والله بتنفع لسوبر ستار». فابتسم عليان ورفع يديه مبتهجا، وأنشد بعدها بأسلوب الموال:

«آه ... آه عليك يا مستر بوش، الوعد بالحرية بعده طري، وأهالي الفالوجة والنجف اشتغلوا في قفاك شغل السمكري، وأنت مش عارف إن الحرية ما بتنشرى شري أوف ... أوف، ولِك يا رفح بنشرب كاسك لكن أنا حياتي مهرية هري (بالية) ويللا شباب... زقفة شباب».

أشباح من الماضي

على أحد سطوح مخيم برج الشمالي، غير بعيد عن دكان الحدادة، أحاط بنا الغسيل المنشور على الجهات الأربع. جلست على كرسي قبالة أحمد سرور، الذي جلس أمامي محتاراً، لم ينظر إلى وجهي، مع أنه كان ينظر في جميع أنحاء المكان، بدا وكأنه يراقب ألوان الثياب المعلقة على حبال الغسيل، ثم حطت نظراته على وعاء غسيل أحمر.

وبعد صمت دام دقائق قال:

«أنا مكنتش مع أختي نهاد، وباقي أهلي، لما صارت القصة».

-قصة شو؟

-القصة اللي بتحكي عنها.

- وين كنت؟

- هربنا لما سمعنا عنهم.

-من هم؟

-في شاب قال أهربو، وهربنا مع أخوي الثاني.

- أي واحد من أخوتك؟

- محمد،

-متى عرفت بما حدث لأهلك؟

-الناس قالوا لي.

-شو قالوا لك؟

-قالوا لي اللي صار.

- وشو صار؟

-اللي صار معهم كلهم.

-احكيلي.

-ما أنا حكيتلِك!

تناول أحمد قلما من جيب قميصه الزهري، فتحه وأغلقه عدة مرات، ثم أعاده إلى جيبه. ورغم الأربعين عاما التي قضاها، إلا أنه يقوم بحركاته الحائرة صغيراً وصغيرا جداً. ترقرقت في عينيه دموع وقال:

«اعذريني، أنا لا أتحدث في هذا الموضوع.. أمي اجت مع نهاد، وحكوا لي القصة، أبوي راح، وكلهم راحوا، أبوي كان كل شيء في حياتي، كان صديقي، كان يلعب معي الشَّدِّة، بالساعات، لما كنت في الجامعة كان يجيب لي كاسة الشاي، ويمسح على راسي ويقول الله يرضى عليك»

«هاي مرق عشرين سنة، وبعدني بحس بأيده على راسي. أنا بتذكرش كثير من اللي صار، مش لأني كنت صغير، بس ما بعرف، بتذكرش، أحياناً بتيجي صورة هون وهناك، ذاك اليوم تذكرت اشي لما شفت [في التلفزيون] دبابة تهدم بيت في رفح، لكن الصورة مرقت بسرعة البرق، واختفت، وحتى نسيت شو هي، بس ارتجف كل جسمي، زوجتي فكرت إني بردان، جابت لي حرام وحطتو علي، مع انه مكانش في برد، كانت الدنيا حامية مثل اليوم. لكن ما قلتلهاش، وقمت نمت. وبعدين أنا من زمان ما خشيت شتيلا. هذا البيت أول بيت إلنا، لما رحنا نواحي بيروت، أو

صبرا ، سكرناه، عشان صبرا أقرب على الجامعة، وأبوي كان حابب يعلمني، ولما صارت الأحداث، رجعت أنا لهون، لأنه هذا البيت بناه جدي وأبوي بعد كم سنة من وصولهم من فلسطين لاجئين».

ـــ بتزور الوالدة؟

ـــ لا ، بسأل عنها ماهر، ماهر بيجي لهون، هي كانت تيجي لهون، بس من يوم ما راحت سعاد على برة، سافرت، أمي تعبت، تعبت كثير. مع إنها زمان كانت قوية، لما صار اللي صار، قالت لي: اللي مات مات الله يرحمه، أنت أسمراني، ومع هذه اللحية راح يوقفوك، احلقها ، فحلقتها ، وشردت من هناك، وجيت على هون.

-من مين سمعت عن سعاد ؟

- من الناس، الناس عرفت، هي ما كانت تحكي، قعدت أشهر ما تحكي، بعدين بعد أشهر حكت، وسألتها ، قالت صحيح أخذوها .

-يعني أنت خرجت بعد صبرا بأشهر؟

- آه..

لا تعيش الزهور في شتيلا

جلست سحر الشيخ وراء مكتبها الصغير في مخيم شتيلا ، وجلس أمامها رجل في الأربعينات من العمر، قالت سحر للرجل:

«إن هذا المشروع لن يعيش طويلا. محل زهور؟ مين بدو يشتري زهور؟ وإذا ما بعت لمدة يوم أو يومين تذبل الزهور! وما في ثلاجة تحفظها ، وإذا كان في ثلاجة، الكهرباء بتقطع كل يوم والثاني».

سحب الرجل نفساً عميقاً وقال:

«طيّب بلاش محل زهور، ساعدونا نفتح محل سمانة؟».

تتنهد سحر وتقول:

«على كل الأحوال المسؤولة مش موجودة، وأنا هاي مش شغلتي، ومحل سمانة لشو؟ في الشارع الواحد عشرين محل سمانة، ليش كمان محل سمانة؟ افتحلك محل خردة هيك على الأقل الخردة بتخربش ولا بتتعفن، وبيوت المخيم قايمة على الخردة وعليها طلب، عاود وفكر شوي بالموضوع، الأونروا بتموّل بالكثير إذا كان المشروع منجرة ثمان آلاف دولار، ولازم نتأكد إن

المشروع مربح عشان تسديد القرض».

خرج الرجل مكسور الخاطر قائلا:

«بخاطرك يا ست سحر».

التفتت سحر نحوي وقالت بأسف:

«يعني بييجو بمشاريع فاشلة من أصلو، إذا واحد فتح محل حلو كلهم بدهم يفتحوا محل حلو، وإذا فتح واحد محل عصير كلهم بدهم يفتحوا محل عصير، شو بتقترحي؟ كيف أرد عليهم؟

.....

دخلت إلى عيادة المخيم، التي تحتل الطابق الأرضي لبناء من طابقين، مررت في غرفة الانتظار التي جلس فيها مرضى الساعة الأخيرة، وتوجهت بنصيحة من محمد مباشرة إلى عيادة الطبيب، سألته إذا كان بالإمكان إزعاجه خمس دقائق، فابتسم في وجهي وقال:

«إذا كنتي مش مريضة يا ريت تزعجيني، خلّيني أتنفس، صار لي قاعد على هالكرسي من الساعة الثامنة، يعني صرت شايف بالتمام والكمال مائة وأربعين مريض، لأن زميلي ما أجاش اليوم فشفت مرضاي ومرضاه، شو رأيك؟ انهد حيلي».

سألته: كم من الوقت يعطي لكل مريض؟ فقال:

«احسبيهم، في الأيام العادية بشوف ستين أو سبعين مريض، أحيانا دقيقتين، وإذا كان مريض جديد عشر دقائق يا دوب، هذا هو الموجود»، ثم نظر من شق الباب وسأل: «يا منير، شو قال رجع مدير الأونروا هانسن على رفح؟».

دخل منير إلى مكتب الطبيب، وقال:

«معلوماتك متأخرة من زمان راح، وصارت تصريحاته على كل شاشات التلفزيون، الوضع برفح بذكرنا بحصار المخيمات، وعملية قوس قزح انتهت، بعد ما طحنتهم طحن ورجعتهم لأيام الثماني وأربعين بالخيام، وعلى المؤن من الأونروا».

رد عليه الطبيب:

«والله خسارة، عاد أهل المخيم كانوا مستعدين ومبسوطين ونظفوا المخيم، واللّي كان مطمِّن حالة بمساعدة أو إعانة راحت عليه».

قال منير: «ييه، هاي أصلاً المساعدات مش راح تطول الكل إلا لإصلاح المأوى وللمراكز

التدريبية». ويرد الطبيب:

» يعني لازم يكون عند الواحد شهادة فقر مع إعاقة ويا دوب، مع إنُّو كلهم بعانو من الضغط والقلب والسكري ول..ول.. ».

خرجت، ومنير، إلى شوارع مبلولة، وروائح رطبة متعفنة، وحوانيت دلقت محتوياتها على حواف أنهر المجاري التي فاضت بها قنواتها، فأغرقت جميع الحفر، وركدت فيها بألوانها الغامقة. وإذا كان بالإمكان تفادي الحفر، فإلى أين المفر من المياه المتساقطة من الغسيل المعلق في كل مكان فوق الرؤوس؟ طلباً للجفاف تحت أشعة شمس تحايلت للدخول بين الثغرات التي تركها البناء العشوائي الذي احتل سماء شتيلا.

قطعنا جانباً من الشارع الرئيسي الذي اكتظ بباعة عربات تعلوها البضائع من جميع الأنواع، أوعية بلاستيكية ملونة، وأدوات كهربائية مزورة لا تعمل أصلاً، استمعت للحوار الدائر بين المشترين والباعة، وكان الكلام في مجمله عن البضاعة الفاسدة.

دخلنا إلى باحة المدرسة التي انصفق بابها وراءنا، ونقلنا إلى ضجيجٍ من نوع آخر. كخلية نحل مهاجرة إلى مكان غريب لا شجرة فيه للركون عليها، أو حافة جدار أو ثغرة تحط عليها الرحال قبل رحلة البحث عن مكان آخر.

كان الدور في تلك الساعة للبنات (في مدارس المخيمات، وبسبب انعدام المدارس، تُستخدم المدارس لتعليم فوجين، الأول في الصباح والثاني بعد الظهر)، دخلنا إلى مكتب المديرة، التي كانت في اجتماع مع مرشدة اجتماعية، والمدير الإقليمي للمخيم. أشار منير إلى المرشدة لتستمر في حديثها، فتابعت وكأنها اعتادت المقاطعة، وبالضبط حيث توقفت عند دخولنا:

«مع هذا الكم الهائل من الأطفال؟ يعني أنا مرشدة لثلاثة عشرة مدرسة، كل مدرسة فيها ألف وخمس مائة طفل ! أي شو هو الإرشاد بخور بَبَخِّرْهُم فيه؟ يا دوب أسأل الطفل عن اسمه، أنا أمام باب مسدود، والمشاكل جاي من جميع الجهات،(تعد على أصابعها) الأستاذ جزء من المشكلة، والطالب جزء، والأهل جزء، والجو العام جزء، والمنهج صعب لأنه مستورد من كندا، والمعلم عنده خمسة وثلاثين دقيقة ليعلم منهج هو نفسه مش فاهمو !

«والأهل مش بها الوارد، الطفل أو الطفلة بطلعوا على المدرسة والأم نايمة! أو الأم مطلقة، أو أرملة، أو زوجها عاطل عن العمل، ما في تواصل بين الأهل وبين المدرسة، الولد ما بفكش الحرف،

وممنوع يرسب لأنه ما فيش أمكنة للأطفال اللي جايين وراه؟! والكتب مش جاهزة إلا في شهر تشرين! ».

سكتت، عارفة المرشدة (وهذا اسمها) وما زالت يداها مرفوعتين في الهواء، استمعنا إليها دون مقاطعة لهذا السيل من الملاحظات، وعندما سكتت وكأننا احترنا بهذا الصمت الذي أحدثه صوتها القوي الواثق من كل حرف قالته، انتظرت منّا طرح الأسئلة، فأطعتها وقلت لها: «وهل هناك حل؟ »

فتابعت وكأنها لم تتوقف بذات الثبات والقوة:

«معلوم في حل، إعداد معلمين متخصصين لجميع المواد ثم إعدادهم على المنهج قبل تطبيقه، تمديد وقت الحصة من خمس وثلاثين دقيقة إلى خمسين، إلغاء نهج مدرسة صباح ومدرسة في المساء، والدوام المزدوج، يعني إيجاد مدارس وزيادة الغرف للتخفيف من عدد الطلاب في كل صف. إنشاء جريدة، وإنشاء مكتبة، وتأسيس مركز لإرشاد الأسرة. هذا هو الحل».

أم سعاد

التقيت بجميلة في مكان عملها، في مركز أطفال الصمود، أوصت البنات العاملات في الحضانات، وخرجت وهي تتذكر بين خطوة، وأخرى، أمراً فتعود أدراجها لتؤكد على أمر جديد، واستطعت بأعجوبة إقناعها بالخروج إلى الطريق.

سرت وجميلة في أزقة شتيلا حتى وصلنا إلى بيت محمد ونهاد، نادينا على محمد الذي أطل برأسه من الباب، سألته جميلة أن يصحبنا إلى بيت جدته لأننا لا نعرف الطريق. وفي الحال انتعل حذاءه المركون أمام العتبة، وأقفل الباب وراءه بسلسلة ثخينة من الحديد بقفل قديم كبير. وانطلق معنا وقادنا بين الأزقة، حتى وصلنا إلى حدود ما كان يسمى صبرا.

كان بيتاً قديماً اعتلاه طابق لا يشبهه في شيء سوى في سكانه، كان البيت رغم بساطة أثاثه في غاية النظافة، الكنبة والكراسي مغطاة بأغطية بيضاء، مزينة بورود زهرية، جلسنا في الصالون، وصوت سيدة أتانا من الداخل، يعلمنا بأنها ستنتهي من الصلاة وستنضم لنا حالاً.

نظرت في أنحاء الغرفة المفتوحة على غرفة أخرى، فلم أر أثراً لقطعة زائدة، كانت الجدران مطلية بالأبيض، ولكن بسبب قلة الضوء مال اللون إلى اللون الرمادي. وقع نظري على باقة زهور

من البلاستيك ضمت جميع الألوان، ورغم ذلك افتقرت لأدنى قدر من البهجة، بل بدت وكأنها ورود ميتة.

جلست جميلة إلى جانب محمد تسأله هامسة عن أحواله، ورد عليها محمد بالهمس هو الآخر، وكأنهما يتحدثان في كنيسة أو مسجد. دقائق قليلة ودخلت أم سعاد بثوب أبيض موشى بورود صفراء متوسطة الحجم، وورود أصغر حجما باللون الأزرق، وضعت على رأسها منديلا أبيض، همست بالسلام وجلست بجواري ونظرت متسائلة بعينين لا لون لهما، كأن شيئا ما أو ستارة دون لون التصقت بهما.

وبالرغم من سمرتها، إلا أن بقع النمش انتشرت على بشرتها. تمتمت بكلمات لا رابط بينها، وكأني فهمت بأنها تسأل لماذا أتينا. ثم سألت بلسان ثقيل ولكن بصوت مخملي خافت: «كيف أهل فلسطين؟»

جميلة سألت أم سعاد عن حالها، ردت عليها:

«بصير لساني ثقيل، بعدين بنعس».

سألتها عن سعاد، قالت إنها سافرت برّة، على بلجيكا. كان طفلان يلعبان في الفسحة الصغيرة أمام الغرفة، عندما علا صوتهما قالت:

«هذا شوفي، بنت وابن عباس، لا يا ربي ابن علي ل.. أ.. ابن محمد، لا ابن إسماعيل، لا إسماعيل راح، آه...». ثم بكل جهد تقول:

«صفاء خذي عباس وروحي لامك». تتنهد جاهدة، قالت لها جميلة: «ديري بالك على حالك يا حجة».

تهز رأسها ببطء وتقول:

«أدير بالي على حالي؟ ما اللي راح راح، لا.. اللي بقلبي ما راح، اللي بقلبي ما بروح، مش هيك؟ ما بروح».

وسألتها: «مين اللي راح؟»

تأتأت: «أنا كان عندي تلتعشر ولد، بسام راح، وفريد راح، وشادي راح وشادية راحتط، واسماعيل راح بعدهن بمدة منيحه (طويلة) وأبوهم راح».

-كيف راحوا يا حجة؟

- راحوا بصبرا، سمعتي عن الأحداث؟ هذا من زمان، أجولنا هون، وراحوا هيك.

- وين يا حجة بالبيت هون؟

- هون الأربعة هون، وأبوهم معهم هون وإسماعيل مش هون، دفنوهم مش هون، بعيد. آه راحوا، رشونا، أنا ونهاد لا، يمكن هربنا، طلعنا على غزة (مستشفى غزة) وبغزة غير شكل كان، صعب نحكي، أحكي وقلبي مش مشجع، ها بتروح الكلمة، هي مش بتروح بس هي ما بتيجي الكلمة.

- أساعدك يا حجة؟

-كيف بتساعديني، بتعرفي تساعديني، أنا بعرف كيف بتساعديني؟

- وسعاد؟

-وسعاد؟، هذيك سعاد أضّت كثير(مرّت بالكثير من الأهوال)، سعاد مفش اجرين تمشي عليها مقدرتش أحملها مع نهاد، كانت راقدة بالأرض، أخذت إسماعيل وماهر،وتركتها راقدة.

سكتت الحاجة، أشاحت بنظرها إلى الأرض، ثم صعدت بنظراتها إلى الحائط، ركزتهما على فجوة في الحائط. محمد قال:

«هذه آثار رصاص».

طال صمت الحاجة، نظرت إلى وجهها، ولاحظت أن طبقة من الستائر نزلت على عينيها، وهمست: «احنا مسحورين« ، ثم حولت نظرها إلى آخر الغرفة وتنهدت وقالت:

-آه ... عملت حالي ميتة، إسماعيل وماهر لطو في الحمام، وسعاد.. سعاد رجعوا لها مرة ثانية، الله العليم، رجعوا لها بدمها، بعدين أجت واحدة اسمها شهيد جوزها من المغرب، هي صاحبتي، اليوم مش هون هي، راحت على باريس، بطلت تيجي تلانا، بتعرفيها؟ سلمي عليها. والله هي أخذت سعاد مع الصليب على المستشفى الأميركية. كان شغل غير شكل، أنا ما في شي بخوفني، بس بخاف من المقبرة، ييه مش عارفة أقول كنت زمان أحكي، بس عم بروح الحكي مني، ما بعرف ليش؟ بس بخاف من المقبرة، بتوخذ، بتبلع المقبرة ما في إلها قرار، بس سعاد، راحت بعيد، أنا بحكي مع سعاد، راحت سعاد، بطل الكلام ييجي، هذا ... شو الكلمة يمة، آ ه.. أنا، آه سحِر، أيوة سحِر، كله سحِر، مش من ربنا».

خرجت بصحبة جميلة ومحمد من بيت الحاجة، سرنا دون أن نتبادل الحديث، مع أنني تعودت على جميلة تحكي عن كل زاوية في المخيم، فالمخيم بالنسبة لجميلة عبارة عن تلال من القصص، إلا أن صمتها هذه المرة لم يزعجني، بل أراحني.

حتى محمد لم ينبس ببنت شفة، رغم أنه طلب أن يحدثني عن موضوع هام، في طريق العودة، لأشرح له كيفية الحصول على منحة دراسية، كي لا ينتهي به الزمن متكئاً على حيطان المخيم.

سرنا دون أن ننتبه إلى أصوات الباعة الذين انتشروا بالمئات، اختفت أصواتهم وعم الصمت المكان، وسقط المغيب، وبدأ الليل يلف المكان، رفعت يدي مودعة جميلة ومحمد اللذين غابا في أحد الأزقة، ثم اختفى المكان تماماً، وسمعت الحاجة تقول أنا.. مسحورة...

||

حديث في الظلام .....

اتصل بي ماهر، وخرجت إلى لقائه، ومعي مفتاح مكتب يوسف الذي قال لي:

«دقي على ـــ مونيك ـــ وقوليلها انو انت موجودة في المكتب عشان البواب ما يفكر إنو في حرامية».

دخلت وماهر إلى مكتب تكدست فيه الأوراق، وآلات فاكس وطباعة، جلست مع ماهر وما زلنا في مرحلة السلامات والتحيات، وإذ بمونيك أمام الباب الزجاجي تحمل صينية وعليها أكواب شاي، فتحت لها الباب، وتناولت منها الصينية، وقالت بالعامية اللبنانية بلهجة فرنسية بأنها لم تجد في البيت سوى بضعة موزات، وبأن يوسف وعبودة سينتظروننا في البيت.

دهش ماهر عندما قلت له بأنني تعرفت على مونيك ويوسف منذ يومين، ومع ذلك أحتل مكتبهم، ويقدمون لي الشاي. قلت له: إنني زرت نهاد شقيقته، واستقبلتني مرتين في بيتها، وكأني صديقة العمر، ورويت له بعض القصص التي أضحكتنا. قصت علينا جميلة، مثلا، قصة قنص الخيار السابح في مياه الطرقات، أثناء حصار المخيمات، عندما جاع الصغار، وأخذوا يراقبون القناصة وتحركاتهم، أمام فوهات أسلحتهم، لكي ينقضُّوا على الخيار في الطريق، وكلما ظفروا بخيارة يتصاعد التهليل والفرح، حتى اعتقد القناصة بأن نجدة وصلت المخيم.

ماهر لم يبتسم. ورغم أن ملامح وجهه لا يمكن وصفها بالعابسة، إلاَّ أن شيئاً ما في ملامحه لا

يشجع على المزاح. فسألته عن ابنه الذي تسمم بسبب أكله للفول الأخضر، فقال:

«كل شي تمام ما في مشاكل، لكن طلّعوا عيني عشان يعطوه دور، بيني وبينك أنا ندمان إنو تزوجت وجبت أولاد، أنا بطّلع في المرايه، وبشوفش إني مناسب أكون أب».

نظرت إلى وجهه، وسألته عن عمره، وعندما قال إنه في السابعة والثلاثين دهشت، إذ لا تشي ملامح ماهر بأكثر من سبعة عشر عاماً مع المبالغة. وعندما قلت له ذلك قال:

«أنا دايماً عرفوني الناس هيك، من لمّا كان عمري خمسة عشر سنة وأنا أنا ما تغيرتش، زمان كان شكلي ونحافتي تنقذني من كثير مطبّات، الفرق الوحيد بين زمان والآن إني طولت قامتي شوي. أيام [تل] الزعتر لمّا أجو علينا ولُّونا، لُّوني مع الصغار، فكّروني طفل، كنت أنا الدينامو في العائلة».

«بتتذكر أيام أحداث الزعتر؟»

عندما سألت ماهر هذا السؤال، كان الظلام يزحف في أرجاء الغرفة، ويعاكس المصباح الكهربائي ويسلب من ضوئه، بدا ماهر طفلاً صغيراً جداً يحمل سيجارة يدخنها خفية عن والديه، سحب عدّة أنفاس من سيجارته وأطفأها في قشرة موز، ثم أشعل سيجارة أخرى، وانطفأ النور، وسمعنا رنين الهاتف، فأهملناه، دارت عينا ماهر بسرعة في أرجاء الغرفة، باحثاً عن صمّام النور، حاول رفعه إلى أعلى ثم دار باحثاً في أرجاء الغرفة، سألته:

هل تخاف الظلام؟

قال: لا، فقلت: إذاً تعال واجلس ولتحدث في الظلام.

عاد ماهر وأطفأ سيجارته في قشرة الموز وقال:

«كان اليوم خميس، رحت على فرن بالاوزاعي أشتري خبز كان معي ولد اسمه حسين، كان الوقت بحدود العشرة أو حداش، واحنا راجعين مرِّينا من جنب السفارة الكويتية، سمعنا صوت طلق نار، ظلينا مكملين للمخيم، كان في ملثمين، فكرناهم شباب من عنا، قلت لأبوي، أخوي محمد كان فدائي طلع على السطح ولما نزل قال لأبوي كأنهم مش إسرائيليين. أبوي أعطى محمد وأحمد خمسين ليرة وقال لهم اطلعوا على مستشفى غزة أحسن، يمكن يفتشوا على شباب..

إحنا ظلّينا بالبيت، مع المغرب أو العشاء، طلعت مع أختي سعاد تنشوف إذا في أخبار في ملجأ أبو ياسر، في الطريق صرت أنا وسعاد نحكي بصوت عالي لنتوّنس بصوتنا، خفنا لمّا ما سمعنا صوت، مرِّينا بناس نايمة في كل محل، وأشياء بتلمع على الأرض، كنا نلاحظها لمّا كانت

تطلع قذيفة مضيئة. وصلنا كانت أم ياسر نايمة على الأرض، ما كنا نشوف منيح..

فكرنا ما في محل بالملجأ فناموا برّة، نزلت على الملجأ أشوف، كان فاضي، سعاد ظلّت على الباب، طلعت أقول لسعاد، انتبهت على أبو رضا، عرفته من ثيابه لأنه شفته بالنهار، قدَّمت عليه وسألته: وين الناس؟ قالّ لي: قوَّسونا، قلت له: بدّي أروح أجيب أبوي، أنا كنت لابس زنوبة، ساعتها فهمت انه الناس مش نايمة اتطَّلعت ناحية سعاد شُفْتها، ركضت قدامّي وفاتت على زاروب، اتطلعت على الناحية الثانية وإذا الملثمين جايين.

نفدت على زروبة ومشيت شوي شوي، شفت سعيد العايد جارنا قربت عليه لقيته مقتول، وركضت وزرقت على الدار قلت لأبوي كلهم مقتولين، حط إيدو على فمي، وشاف ثيابي كلها دم، جرني على الحمام وغسلني وقال تحكيش لأخوتك الصغار، على السكت. رجعنا قعدنا نمنا للصبح قاعدين، واللاّ صوت دق على الباب، وصوت افتحوا الباب ... افتحوا الباب، سعاد قالت: لا، ما تفتحش الباب، قالوا إذا بتفتحوش الباب منضرب قنبلة، أمي قالت له: افتح الباب، فتح أبوي الباب..

كانت الشمس دوبها طالعة، فاتوا وبلّشوا يفتشوا البيت، قال لهم أبوي: ما عنا شي، أنا بصلح تلفونات، كان أبوي حاطط مصاري بقلب حفاظات أختي شادية، طلعهم وقال لهم خذوا المصاري واتركونا في حالنا. كانت اختي شاديا تبكي، كانت يا دوب بأول المشي كان عمرها سنة ونص، كانت شقراء عن دونا كلنا، هي ونهاد، نهاد أختي راحت حملتها، فكروها لبنانية، قالوا لها: اطلعي معها برّة وانتي فوتي، نهاد حطّت شادية على الأرض خارج الغرفة بالفسحة الصغيرة..

فات واحد عندهم لكنه أرمني، قال لهم بعدكم ما قوستوا وأخذ السلاح، وقال هيك بقوسوا وضرب سليط (مشط رصاص). أنا كنت واقف على باب غرفة النوم بالوجه، كانت الشمس بادية تفوت منيح من الباب، والجندي واقف والشمس بقفاه، ما بعرف إذا في حدا تصاوب، كان أبوي يطَّلع علي بس ما يحكي، سليط ثاني انطلق وأبوي كان طويل شفته بسقط كأنه جدار، أنا شفت أبوي سقط ورجعت لورا، كان إسماعيل واقف على باب المطبخ، شدِّيته من ايده ودخلنا على الحمام قعدنا في الزاوية، بس الباب مشقوق، بدِّيش أسكره..

بس خفنا يفتح الباب وينتبهوا، والباب بالعادة بزيِّق، فأمسكت بالباب وثبتت ايدي من ورا، بسَّام كان شايفنا، كان بدُّو يقرب علينا، أطلقوا عليه رصاص وقع على شادي وفريد، وسمعت صوت أبوي بقول أيْ..

شاديه فاتت ركت حالها على العتبة وشافتنا، وصارت تقول ناناّ..ناناّ، سحسلت حالها عن العتبة، وراحت تلا أمي مسكتها، أمي ظلت بدون حركة، انتقلت شاديه لأبوي وقالت ناناّ، واحد قال اطلق سليط (سبع طلقات مرّة واحدة)، شاديه رشق راسها زي اللّبن. كانت لابسة فستان أحمر مورّد بكحلي وأبيض وسكت الصوت، كان صوتها هي بس اللي طالع».

صمت ماهر، ونظرت إلى نقطة الضوء الأحمر على جهاز التسجيل، وفجأة انغمر المكتب بالضوء الكهربائي. أشعل ماهر سيجارة، وسحب عدّة أنفاس صغيرة، بصمت، نظرت إلى وجهه الأسمر النحيل، رأيت أسنانه البيضاء وقد ازداد بياضها. همست، وكأنّي أهمس في بئر:

«وبعدين شو صار؟»

«طلّيت من طاقة الحمام، مشفتش شي، رجعت اتطّلعت من باب الحمام، كانت أمي متمددة بوجه نهاد، شفت إصبع أمي بتحركوا لنهاد، شوي والصوت رجع، رجعت أنا في زاوية الحمام، ومسكت الباب خوفي ليزقزق، سمعت صوت رشّة رصاص، وصمت، كل شي سكت..

حبيت لعند أمي تحركت، رحت لنهاد فتّحت عينيها وتحركت، نقلت لسعاد حركتها فتحت عينيها بس ما تحركت، انشلت سعاد، حملت شاديا فلتت طاسة رأسها فحطيتها على الأرض جنب أبوي، وطلعنا أنا وأمي ونهاد وإسماعيل، بعدين مشينا في الزواريب..

مرقنا على دار أم احمد عودة، وهناك بعرفش كيف ضيعنا أمي ونهاد، فرحت (ذهبت) مع إسماعيل واتخبينا في مستودع طحين، وكان هناك أولاد من الحارة، طلعت على السطح لأشوف كيف بدّي أقطع، وكانوا الصغار يبكوا فانتبهوا عليّ، وسمعت صوت بقول سلّم تسلم..

وما كان في إمكانية نضل مع صياح الأولاد، طلعنا، شفت اثنين من المجموعة اللي كانت عناّ في البيت، خبّيت حالي بين الأولاد، كان معهم مجموعة من الرجال، المشكلة كانت إسماعيل مش قادر يمشي واجريه معقربة، مش طايعته عالمشي، وإلا كان في إمكانية نمزط (ننسل) من الزروبة على اليمين، لأنهم هم شوي بعاد عناّ..

إسماعيل ربخ (جلس على الأرض لا يستطيع حراكاً) بالأرض، وأناديه وأشجعه مش قادر، إسماعيل محكاش ولا كلمة طول من ما كنا في الحمام. قربنا عليهم وقالوا الرجال لحال والأولاد والنسوان لحال، فأنا ظليت مع النسوان لأنه شكلي كان ولد مع إنو عمري خمسة عشر سنة، كنت أبيّن أصغر منهم..

ومشُّونا الرجال على اليمين، وإحنا على الشمال، كان مع الرجال أبو محمود وابنه ربيع، وابن

ثاني وأخوه كانوا كثار، ومشينا في المخيم، كان القتلى أكوام، أكوام، وشفت اللي قوس في البيت، نادى واحد اسمه عبد الله قال له: طلعوهم على المدينة الرياضية..

كان اسماعيل قدامي وأنا حاطط ايدي على أكتافه، كنت حاسس لو بقيم ايدي عن أكتافه بسحل على الأرض، شفت من بعيد مفيد غنطس، كان متخبي بعرق جدار، اليوم مفيد موجود في أميركا، أجت عيني في عينه. وصلنا على المدينة الرياضية..

كان واحد راكب حصان، ويخايل حوالين واحد مصري كان هذا يقول: والنعمة يابيه أنا ما ليش دعوة، وقتلوه..

قعدنا في المدينة الرياضية، وإذا هم جايبين ساندويشات مرتديلا، معرفش ليش كانوا بدهم يطعمونا مرتديلا أنا شفت اللّحمة قرفت، ومن يومها ما بكلش لحمة.

جابر الملاك .....

جلست هدى مع صديقاتها يثرثرن ويشربن الشاي، كن يتحدثن عن الكيلوات الزائدة على الأرداف والأفخاذ، وما تمارسه كل واحدة منهن للتخلص منها. وقفت هدى واستعرضت قامتها أمامهن، وقالت إن عليها بذل المزيد من الجهد لكي تتخلص من كيلو غرام آخر، فشهقن وأكدن لها أنها أصبحت تشبه الهيكل العظمي، ثم تضاحكن بوجوه مليئة بالفرح. وضعت هدى ملاك من الجبس بين فناجين الشاي، ونظرت إليه بإعجاب ثم شكرتهن على الاختيار الموفق، فضحكت شذا وقالت:

«المزبوط، ولا أهون من هدية لهدى، على طول ملاك.. ملاك وكمان ملاك».

فسألت هدى اذا كانت من هواة تجميع الملائكة، فقالت:

«صار عندي فوق المتين الملاك، كل الناس يجبولي ملايكة، حتى بدون مناسبة، كل الناس بتعرف انه بجمع ملايكة. حتى بس يشوفوا ملاك بفكروا بهدى».

قلت لهدى:

«يعني انتي زارعة فكرة بذهن الناس، وبنفذوها، واعية هذا الشيء؟»

قاطعتني شقيقة هدى، رحمة، التي كانت تلعب تحت شجرة صغيرة في الساحة، أو المصطبة:

«هدى أختي زي جابر اللي بشتغل بتلفزيون أبو ظبي، كل الناس بحبوه لأنه بحبنا، بحب أهل المخيمات، وجمعلنا مصاري، مش لهون بس لهناك برفح، عشان يعمرو البيوت اللي دمرها

شارون، وبقولوا لما يخلصوا عمار هناك، جابر بدو يعمر لنا بيوت هون إلنا بالمخيم مش لكل الناس، بس للناس اللي ساكنين ببيوت زينكو».

سكتت رحمة ونظرت نحوي وقالت:

«وحياة الله صحيح».

هدى تعود للقول:

«الملاك رسالة، لما الناس بتفكر في هدى بتفكر بالملاك، أنا بآمن انه كل واحد جابلي ملاك ببطل في بقلبه حسد، في مرّة ناس بعرفهمش جابوا لي ملاك وأعطوه لواحدة صاحبتي توصلّي اياّه، وقالوا لها هذا لصاحبتك اللي بتجمع ملايكة».

رحمة تتدخل في الحديث وتقول لوالدتها الشاخصة إلى شيء غير مرئي:

«مش يمة قال جابر بدي يعمر بيت لكل اللي تدمرت بيوتهم؟ ها يمَّه؟»

تقول أم رحمة دون أن تستعيد نظرها:

«شفتو شجرة الليمون على صغرها مطلعة حبة!».

نظرت إلى شجرة الليمون الصغيرة، كان أحد فروعها القصيرة ينوء بحمل ليمونة كبيرة صفراء.

اقتربت رحمة من الليمونة وتحسستها بيدها الصغيرة وقالت لوالدتها:

«مش آه يمة جابر ملاك».

انتبهت أم رحمة إلى الصوت، ورفعت بصرها إلى وجه رحمة، وقالت بصوت حالم:

«آه يمَّة.. جابر ملاك».

-بيروت-جنيف